

العمارة في بلاد الرافدين

عمارة بلاد الرافدين في عصور ما قبل التاريخ:

إن اسم بلاد الرافدين أو ما بين النهرين، يدل على خلفية تاريخية أكثر من دلالاته على منطقة جغرافية، وإن كان المقصود بها تلك المنطقة الممتدة بين نهري الفرات ودجلة، من جبال زغروس شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً. استوطنت في هذه البقعة من الأرض أقدم الشعوب من السومريين إلى الأكاديين فالبابليين والكلدانيين والآشوريين والعموريين والأراميين.

كان من الطبيعي أن تقوم الحضارة في وقت مبكر على ضفاف نهري دجلة والفرات، لعدة أسباب أهمها: الأرض الخصبة- المناخ المعتدل والمتنوع على امتداد النهرين- الاستيطان المبكر للإنسان فيها منذ العصور الحجرية القديمة. إذ كشفت التنقيبات في مواقع سمارة وحسونة وفي تل العبيد عن الكثير من البقايا المعمارية، فبدايات العمارة في بلاد الرافدين تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد ومنها:

- **معبد أريدو:** بنى في مدينة أريدو جنوب شرقي بلاد الرافدين في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد (حوالي 3500 ق.م). يمثل البدايات الأولى التي تطور عنها بناء المعابد في بلاد الرافدين، وهي المعابد التي تبنى على مصاطب وتعرف بالزيقورا، والمتبقي من هذا المعبد هو المصطبة فقط، وهي مبنية من الحجر الحواري ومطلية بطبقة من الجص، ولكن المعبد الذي كان فوق المصطبة بنى من القرميد وله مدخل تتقدمه الأعمدة بحيث تشكل رواقاً أمامياً، والبناء بحد ذاته يتألف من ثلاث طوابق

وكانت جدرانه مزينة ببروزات وتقعرات مضلعة. كشف في الطبقات الأقدم عن بقايا مباني، تؤكد وجود عدة معابد تركت محتوياتها لقدسيتها ولقدسية الأرض المبنية عليها، والتي كانت هبة للإله.

- **المعبد الأبيض:** كشف عن بقايا المعبد الأبيض في مدينة أوروك في الجنوب الشرقي لبلاد الرافدين، والذي يعود لنهاية الألف الرابع قبل الميلاد (حوالي عام 3100-3200 ق.م). بنى على الأرض التي كانت هبة الإله أنو كبير الآلهة السومرية، للمعبد مدخلان يتم الوصول إليهما عن طريق درج. يتم الوصول إلى سقف المعبد من داخله، وكانت جدران المعبد مزينة بالبروزات والتقعرات المضلعة، وكانت زوايا المعبد تتجه إلى الجهات الأصلية الأربعة.

لا يقل المعماري الرافدي إبداعا ولا تقدما في مجال العمارة، عن المعماري المصري الذي تعامل مع الحجارة فشذبها بالنسب الدقيقة، متغلبا على صعوبة الزوايا والمنحنيات والتجويفات بطرق ذكية، فالرافدي تعامل مع اللبن والقرميد صانعا منها ما استحال تحقيقه من الحجارة كمادة أساسية للبناء، فقد صنع من اللبن والقرميد، القباب والأقبية، مع الأقواس والتجويفات والأكتاف والعضادات، التي استعاض بها عن الأعمدة الحجرية النادرة الوجود، لندرة الأحجار نفسها.

أكدت المكتشفات الحديثة أن المدن الرافدية كانت متكاملة من حيث التخطيط والتنظيم، فهي تشتمل على المرافق العامة والساحات الواسعة، والشوارع الرئيسية العريضة والفرعية المتعامدة معها بزوايا قائمة، تتخللها الجزر الخضراء إلى جانب المعابد والزيقورات الشاهقة الارتفاع، التي تشبه الأهرامات من حيث الدقة والارتفاع، ولكنها تختلف عنها من حيث الوظيفة التي تؤديها.

وبشكل عام فإن العمارة الرافدية هي وليدة عوامل مشتركة طبيعية أثرت في تطورها إضافة إلى المواد المعمارية الأولية المستخدمة في البناء والتي حددت الإطار العام لأسلوب الإنشاء وأعطت للعمارة الرافدية شخصيتها المستقلة.

العمارة الدينية

يعتبر عدد المعابد الرافدية، بالمقارنة مع عدد المعابد المصرية، قليلا جدا ولكن بالمقارنة مع قدم المعابد المصرية، فبناء المعابد في العمارة الرافدية أقدم بكثير (أقدم بحوالي /500/ عام تقريبا).

علما بأن تأثير الدين على الإنسان الرافدي، أقل منه على الإنسان في بلاد الشام أو في وادي النيل، مع ذلك تعدد بناء المعابد في العمارة الرافدية بتعدد الآلهة، كما توزع بناء المعابد في شكلين أساسيين:

- الأول: بني فوق مصطبة على سطح الأرض، وله مخطط لا يختلف عن بناء البيت إلا من حيث وظيفة الأقسام والصالات.
- الثاني: مبني فوق مصاطب ويعرف بالزيقورا.

في كلا النوعين انطلقوا من فكرة سمو الآلهة وقربه من السماء من جهة، والحيلولة دون غرق المعبد في الشتاء وعدم تعرضه للفيضان أو الرطوبة والأوساخ من جهة أخرى.

مع أن البناء الرافدي قد سجل تطورا مضطربا من خلال الحضارات الرافدية، إلا أن بناء الزيقورات كان أبقي وأقوى أمام عوامل الطبيعة، فقد حفظت لنا بقايا العمارة في بلاد الرافدين العديد من الزيقورات، من الألف الأول والثاني والثالث قبل الميلاد، ولكن لم يبق من المعابد المبنية على مصطبة إلا القليل وهي من الفترة المتأخرة، أي من الألف الأول قبل الميلاد.

المعابد:

تتشابه المساقط الأفقية للمعابد في بلاد الرافدين إلى حد بعيد، مع المساقط الأفقية للمساكن الرافدية، وتبنى المعابد على مصاطب مرتفعة وبدون التقيد بالاتجاه، فمدخل المعبد ليس شرطا أن يؤدي مباشرة إلى الصالة المقدسة، وإنما يمكن أن ينحرف للداخل بزواوية ليمر عبر غرفة أو قاعة تسبق الصالة المقدسة، وتوزع أقسام المعبد حول الفناء الداخلي محيطة بالقسم المقدس، ومن دراسة تصميم المعابد التي أنشئت في بلاد الرافدين خلال فترات مختلفة نرى أنها تتميز باللامركزية، وحرية المساقط في البناء، وتكرر المعطيات التي انطلق منها المعمار يون الرافديون في تصميم المساكن نفسها في تصميم المعابد، على الرغم من اختلاف

الوظيفة التي يؤديها كل من المسكن والمعبد، وذلك لأن المعبد يعتبر بيت الإله المعبود من وجهة نظر المعمار الرافدي.

إن طبيعة الجدران المستخدمة في البناء توحى بفكرة التحصين الدفاعي، لأنها سميكة ومرتفعة وعالية وبدون فتحات على الخارج، وجميع الغرف مغلقة للداخل وتفتح على الفناء الداخلي. تتسم غرف المعبد بعدم الاتساع لتوفير إمكانية تسقيفها بالقباب والعقود.

وقد كان لبعض المعابد والقصور في العمارة الرافية، واجهات ضخمة وأبواب عالية محاطة بالتماثيل، كما أن زوايا المعبد كانت أضلاعها تتجه إلى الجهات الأربعة. استطاع المعمار الرافي تلافي ندرة الحجارة التي تساعد على زخرفة واجهات المباني، وإضفاء طابع جمالي عليها، باستخدامه للقطع الخزفية والزجاجية ذات الألوان المتعددة التي تعطي أشكالاً رائعة، تغطي جدران المباني الخارجية بعد إكسائها بطبقة من القرميد.

المعابد على الزيقورات:

تعود أقدم الزيقورات في بلاد الرافدين إلى عهد السومريين، الذين انطلقوا في بنائها من فكرتين أساسيتين هما:

- 1- حماية المعبد من الغرق في حالة فيضان نهري دجلة والفرات، وعدم تسرب الرطوبة والحشرات والأوساخ إلى داخل المعبد،
- 2- تحقيق فكرة سمو الآلهة المطلق، وذلك عن طريق رفع المعبد إلى أعلى حد ممكن لكي يقترب الإله من السماء.

يتم إنشاء الزيقورات عن طريق إنشاء مصاطب متوضعة فوق بعضها البعض، بشكل منظم ومتدرج في الارتفاع والاتساع، بحيث كلما ارتفعت إلى الأعلى تناقص حجم المصطبة، حتى تصل إلى المصطبة الأخيرة وهي الأصغر وتشكل مع باقي المصاطب، ما يشبه البرج المخروطي الشكل المقطوع من الأعلى. تتألف الزيقورا من قسمين:

- السفلي وهو المصاطب ذات المساقط المربعة أو المستطيلة بنسبة 3/2 أو مخروطية.
- القسم العلوي الذي يرتفع فوقه المعبد، وهو القسم المقدس.

بالنسبة لمادة البناء فهي الطين الممزوج بالتبن، وتغلف الأجزاء الخارجية بالقرميد، كما توضع طبقة من القار في الفواصل الحاصلة بين المصاطب لإعطائها القوة والتماسك، وتتألف الزيقورات بشكل عام من أربع أو سبع طبقات، وفي غالب الأحيان تكون كل طبقة بلون يختلف من لون الطبقة الأخرى.

أما المعبد الذي يعلو المصطبة الأخيرة، فهو عبارة عن صالة مستطيلة رئيسية وهي بمثابة القسم المقدس، فيها تمثل الإله الذي تقدم له الطاعة والقرابين والهدايا، وهذه الصالة تمتد بطول المعبد، لكنها قليلة العرض نسبياً، وعلى جانبيها تتوزع مجموعة من الحجرات الصغيرة. يقع المدخل الرئيسي للمعبد في الجانب الغربي من الزيقورا، ولا يكون بمواجهة الدرج المؤدي لقمة الزيقورا، وذلك بسبب التخطيط العام للزيقورا الذي يحتم على المتعبد البدء بالصعود إلى المعبد من الجهة الشرقية، ثم يضطر للسير والدوران حول عدد أكبر من المنحنيات قبل أن يصل إلى القسم العلوي المقدس.

وهذه الطريقة في الوصول إلى بيت الإله لم تقتصر على المعابد التي تعلو الزيقورات، وإنما استخدمت في المعابد الأخرى كذلك، ويعتبر هذا الأسلوب من السمات الأساسية للعمارة الدينية في بلاد الرافدين، على عكس المعابد المصرية التي اعتمدت في تصميمها على الخط المحوري المستقيم الذي يؤدي مباشرة إلى القاعة المقدسة.

والزيقورات ليست متشابهة من حيث طريقة الصعود إليها عبر الأدراج، فالزيقورات السومرية كانت ذات درجين أمامي وجانبي، بينما الزيقورات الآشورية والبابلية ذات درج ملتو واحد.

د. عبير شدود